ذاكرة الألم في العراق

وقائع المؤتمر الدولي الثاني

16-17 نيسان 2025م

المجلد الثالث

هوية الكتاب

وقائع المؤتمر الدولي الثاني ذاكرة الألم في العراق

قرن من الجرائم والإبادة الجماعية والمجازر والانتهاكات

المشرف العام: السيد عقيل عبد الحسين الياسري – الدكتور. عباس عطية القريشي

تحرير: أ.د. قيس ناصر راهي – د. ثائر غالب الخيكاني

المؤلف : مجموعة مؤلفين

الناشر: المركز العراقي لتوثيق جرائم التطرف/ العتبة العباسية المقدسة

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

سنة الطبع: 2026م

الترقيم الدولي: 978-9922-262-02-4

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية: 124/ 2026

التدقيق اللغوي: أ.د. مصعب مكي زبيبة

الإخراج الفني: كاظم سعيد الفتلاوي

حجم الكتاب: 190×270

عدد الصفحات:542

جميع حقوق النشر محفوظة للمركز العراقي لتوثيق جرائم التطرف، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب من دون إذن خطي مسبق من المركز

تنبيه:إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر .

المحتويات

المحور الثامن: جرائم الارهاب بعد ٢٠٠٣م ٧

التوزيع الجغرافي لضحايا الإرهاب في العراق للمدة ٢٠٠٣-٢٠٢٤م ٩

الانتهاكات الإرهابية ضدّ المكون التركماني في تلّعفر بعد (٢٠٠٣م) ٣٧

جريمة سجن بادوش بوصفها جريمة ضد الإنسانية: في ضوء الاتفاقيات الدولية والدستور العراقي ٨١

استخدام داعش للأسلحة الكيميائية في تازة خورماتو: دراسة تحليلية لتداعيات الهجوم وآثاره ١٠٣

مدينة آمرلي بين نار الإرهاب وألم الصمود: دراسة في تداعيات حصار ٢٠١٤م ١٣١

جرائم الإرهاب على الموروث الثقافي في قضاء الحمدانية/ نينوى(٢٠١٤-٢٠١٦م) نماذج منتخبة ١٤٥

جرائم تنظيم داعش في نينوى (٢٠١٤ – ٢٠١٦م) دراسة وثائقية في تقارير المفوضية العليا لحقوق الإنسان في العراق ١٦٣

Semiotic Propaganda of ISIS and its Impact on Components of Iraqi People ١٨٧

المحور التاسع: ذاكرة الألم في الحروب ونتائجها **٢١٣**

الحروب وأثرها في تفكيك الهوية الوطنية (التشظي والضياع والأنوية) ٢١٥

الحروب في حقبة نظام البعث وتداعياتها على حقوق الإنسان في العراق (١٩٦٨م – ٢٠٠٣ م) ٢٣٥

الحربُ العراقيَّة الإيرانيّة وآثارها المجتمعيَّة ٢٥٥

Nothing Ever Dies: War Trauma and The Psychological Consequences of The Iran-Iraq War ٢٧٦

المحور العاشر: ذاكرة الألم والهوية الوطنية والسلم المجتمعي **٢٨٥**

تجاوز آلام الماضي وبناء الهُوية الوطنية في العراق: دراسة في ضوء نظرية لوغرثيرابي (العلاج بالمعنى) ٢٨٧

الجرح الثقافي وإعادة تشكيل الهوية الجماعية في المجتمع العراقي ٣١٣

أثر التنظيمات الإرهابية على السلم الأهلي والمجتمعي في العراق بعد عام ٢٠٠٣م ٣٤١

داعش بين التمدد والانحسار وأثر ذلك على النسيج الاجتماعي (قراءة أنثروبولوجية) ٣٦٣
أثر البرنامج الإرشادي بأسلوب ملء الفراغ في خفض ألم الفقد لدى أبناء ضحايا الإرهاب ٣٨٥
المحور الحادي عشر: دور الفنون والأدب في توثيق ذاكرة الألم ٤٢٩
دور السينما في توثيق جريمة سبايكر وأثر ذلك على الوعي المجتمعي والذاكرة الجمعية ٤٣١
دور الفنون في توثيق حالات الألم في العراق (نصب الحرية أنموذجاً) ٤٦١
بنية الزمن السردي في رواية الفتيت المبعثر لمحسن الرملي (بناء على نظرية جيرار جنيت) ٤٨٧

الحروب وأثرها في تفكيك الهوية الوطنية
(التشظي والضياع والأنوية)

أ. د. سمير الخليل

أستاذ النقد الأدبي والدراسات الثقافية

المستخلص

لا تكمن خطورة الحروب وأثرها النفسي وبشاعتها في تأثيرها المدّمر في سوح القتال والجبهات والسواتر فقط بل يكمن في مؤثّراتها وتداعياتها السايكولوجية والاجتماعية والتاريخية، وأثرها في زعزعة الأمن الوطني وزعزعة الهوية الوطنية وتحويلها إلى منظومة هشّة مفكّكة وعدمية من خلال التركيز على النزعة العدائية وعسكرة الحياة وتحويل المجتمع إلى قوة تتوّجه الى الفعل القتالي والعدواني مما يؤثر في تشكيل الوعي بالهوية الوطنية وخصائص التحضّر والمدنية ورقي كل الفعاليات الإنسانية المرتبطة بها والمعبرّة عنها، والهوية هي الشعور العميق والوجودي الاساسي للإنسان والشعور الخاص بانتمائه.

وعلى وفق هذه المعطيات فإن تناول الحرب التي تؤثّر تأثيراً سلبياً في خلخلة الهوية وأبعادها الإنسانية والوطنية هي الحرب التي تتسّم بالاستبداد والعبثية والتوّجه السلبي واللاّانساني. فإنها قطعاً تؤدّي إلى اختزال القيم والتمركز حول نزعة القوّة والفرض ونفي قدرة العقل والتدبر، إنَّ الوعي المتعالي في رصد الحرب، ومعاناة الناس وسلب انسانيتهم وثوريتهم على الرغم من الخراب والوجع الذي عمّ العراق وأدى إلى مظاهر التشتت والتمزق والمأزومية، وتجسيد هول الحرب الذي يشبه هول القيامة.

وليس هناك حدث فاجع وعدواني مثل الحرب التي تهشّم الذات الإنسانية وتمسخ الهوية من خلال تسرب القلق الوجودي والهجرة وثقافة الخوف لتجعل من المجتمع يتعرض للإهتزاز

والضعف، وتحوّل العلاقات من طابعها الإنساني إلى نزعة البحث عن الأمان وفقدان الثقة بالحاضر والمستقبل، والخوف من المجهول الذي تسبّبه الحروب، وتجعل الفرد يميل إلى كلّ نزعة فردية توفر له الأمان والاستقرار.

الكلمات المفتاحية: الحروب، التفكيك، الهوية، التشظي، الضياع

Abstract:

War represents one of the most devastating human experiences،not only for its physical destruction on battlefields but for its profound psychological،social،and cultural consequences. Its danger lies in its ability to undermine national identity،fragment social cohesion،and erode the values that shape collective consciousness. Through the militarization of life and the normalization of violence،war transforms society into a structure dominated by hostility and fear،weakening the foundations of belonging and distorting the characteristics of civilization and human development. Identity،as a deep existential sense of belonging،becomes fragile when exposed to the pressures of tyranny،oppression،and absurd conflict. When war takes on an authoritarian and dehumanizing dimension،it reduces values،prioritizes domination،and suppresses reason and reflection. In Iraq،the accumulated suffering،destruction،and fragmentation have embodied the full horror of war،producing outcomes reminiscent of existential collapse. The resulting anxiety،forced displacement،and culture of fear have reshaped relationships،weakened societal bonds،and fostered insecurity and mistrust toward the present and future. Ultimately،war does not merely destroy structures; it destabilizes the human self،distorts identity،and pushes individuals toward isolation in search of safety. Its enduring impact lies in the deep wounds it leaves on national cohesion and the collective human experience.

Keywords: war – identity – fragmentation – disintegration – loss

المقدمة:

انطلاقاً من البعد التاريخي والثقافي والبعد الإنساني والقيمي لا توجد ظاهرة أكثر قبحاً وبشاعة مثل الحروب التي تجسد وتكشف عن فعل تراجيدي لا يحمل سوى الخراب والضياع لما تنطوي عليه من قهر وقتل وتعويق ليس للإنسان فحسب، بل إنَّها قتل لحياة، وتحطيم للسلام ونفي لكلّ نماء،

ومستقبل، وتوّغل في السلوك العدواني والسادي وتمثل لنوع من العدميّة ولذا يمكن فهم وتسويغ مقولة إنَّ لا منتصر في الحرب، وهي آخر الوسائل، وأول الخروج على العقل والعقلانية والتدّبر، وهي أيضاً استعادة للبدائية ونبذ كلّ القيم الإنسانية لاسيما قيم قبول الآخر، وقيم التحاور ومرونة الموقف ونفي الحكمة والاحتكام إلى البعد الإنساني والقيمي في تأسيس الموقف الحقيقي وليس الموقف العبثي.

لا تكمن خطورة الحروب وأثرها النفسي وبشاعتها في تأثيرها المدّمر في سوح القتال والجبهات والسواتر فقط، بل يكمن في مؤثّراتها وتداعياتها السايكولوجية والاجتماعية والتاريخية، وأثرها في زعزعة الأمن الوطني وزعزعة الهوية الوطنية وتحويلها إلى منظومة هشّة مفكّكة وعدمية من خلال التركيز على النزعة العدائية وعسكرة الحياة وتحويل المجتمع إلى قوة تتوّجه الى الفعل القتالي والعدواني مما يؤثر في تشكيل الوعي بالهوية الوطنية وخصائص التحضّر والمدنية ورقي كل الفعاليات الإنسانية المرتبطة بها والمعبرّة عنها، والهوية هي «الشعور العميق والوجودي الاساسي للإنسان والشعور الخاص بانتمائه»(1).

ومن خلال قراءة تاريخ وفكر الشعوب نجد الميل إلى نبذ وكراهية الحروب بوصفها الوسيلة التي تدمّر كيان الأمم وتختزل دورها الإنساني، ولذلك نجد العرب وغيرهم من الشعوب يصفونها بأنّها نوع من الانتحار، فهي تقترب من مفهوم الموت المجاني أو الفعل الذي يفتقد إلى المعنى، وبطبيعة الحال يستثنى من ذلك حروب أو معارك الدفاع عن الأوطان والمقدّسات والحقوق والحريّات، فتلك ردّة فعل على عدوان وعلى حروب بربرية ولكن تبقى الحرب حرباً وما عدا ذلك فإنها حروب التوحش والبحث عن الغنائم والثروات والنفوذ والهيمنة وتعبير عن العدوان والشر وفرض الإرادة وممارسة العنجهية والتمركز العدائي المؤطّر بنزعة اللّهاث والهوس بالنفعية والبراغماتية وتأسيس مفهوم الاستبداد والغزو.

فرضية البحث:

محاولة تشخيص ما تخلفه الحروب من أثر مدمّر على الحياة والناس والهوية الوطنية، والوقوف عند معاناة الشعب العراقي وهو يدفع ثمن وحشية النظام السابق وتفكك هويته الوطنية .

---

(1) د. سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، منشورات اتحاد الأدباء- بغداد، 2022: 618.

اختيار الموضوع :

تغطية كل آثار الحروب التي خاضها النظام الدكتاتوري الشمولي ورصد المعاناة الإنسانية للشعب العراقي تحت ظل الحصار والاحتلال الأمريكي والنتائج المزرية لحكم الدكتاتور ونظامه الهمجي .

إشكالية البحث:

يبقى كل ما نكتبه ناقصاً لأنَّ هناك وثائق وأسرار ما زال يخفيها نظام التسلّط الوحشي تتكشّف كل يوم للدارسين لاسيما المقابر الجماعية والتهجير القسري والمفقودين والأرامل .

المنهج:

وظفنا المنهج الوصفي وسيميائية الدلالة في رصد أثر الحروب التي خاضها النظام السياسي بعبثية واضحة كانت آثارها مدمّرة على الشعب العراقي بكل أطيافه .

المفاهيم:

جاءت مفاهيم متعددة في حديثنا وتحليلاتنا لآثار الحروب القاسية ووحشيتها وبشاعتها، مثل (تشظّي الهوية) و(تفكّك الهوية الوطنية) و(التعددية الثقافية) و(التشرّد الثقافي) و(ثقافة الخراب) وغيرها إذا أوضحنا المفاهيم الكامنة وراءها وتداعياتها .

الحروب ومفهوم الهوية :

وعلى وفق هذه المعطيات فإن تناول الحرب التي تؤثّر تأثيراً سلبياً في خلخلة الهوية وأبعادها الإنسانية والوطنية هي الحرب التي تتسّم بالاستبداد والعبثية والتوّجه السلبي واللاانساني. فإنها قطعاً تؤدّي إلى اختزال القيم والتمركز حول نزعة القوّة والفرض ونفي قدرة العقل والتدبر، «إنَّ الوعي المتعالي في رصد الحرب، ومعاناة الناس وسلب انسانيتهم وثوريتهم على الرغم من الخراب والوجع الذي عمّ العراق وأدى إلى مظاهر التشتت والتمزق والمأزومية، وتجسيد هول الحرب الذي يشبه هول القيامة»(1)، وإن رموز التسلط في العراق والتمركز حول الشريعة الإسلامية يقودون الشعب إلى محرقة بشرية وضياع هويتهم وجعلها في مسار يشبه شريعة الغاب وتعدّ الحروب أحداثاً تحطم كيان الشعوب ويفقدها هويتها من خلال تفكك منظومة القيم بفعل الانهيار الاقتصادي والأخلاقي والاجتماعي

(1) د. سمير الخليل، روايات ما بعد الكولنيالية، دار أهوار- بغداد، 2003: 171.

وما تفعله الحروب من تشويه للذات الوطنية، هذا التشويه الذي يصيب الفرد والمجتمع، وكل معاني وابعاد الواقع لما تجلبه الحرب من دمار وموت لكل معاني البقاء والبناء، فالتشرّد الثقافي «يصف الحالة التي يفقد فيها الفرد أو المجتمع هويته الوطنية وتراثه الثقافي، ويتسبب ذلك في الشعور بالانفصال والتشرّد وربما ما حدث في العراق بسبب ذلك ابتداءً بالاحتلالات ومن ثمّ الحروب وحرب الخليج الثانية ودخول القوات الأمريكية المحتلة لتنتهي بداعش وتهديم البنى الثقافية والاجتماعية والتاريخية والدينية للمجتمع العراقي»(1).

والكثير من علماء النفس يعزون وجود القلق الوجودي بسبب المخاوف والرعب الذي تثيره الحروب وآثارها النفسية، وفقدان الأمن ويلجأ إلى أساليب وأواليات دفاعية للحصول على الاستقرار والثبات بقوة، فالحرب هي اقتحام للذات، إذ «يحاول الوجود الانساني المحسوس، من خلال أبعاد دفاعية محسوبة، الدفاع عن نفسه ضد نشوء الغرابة الخارقة وضد الرعب الصريح العاري المجرّد، وضد اقتحام الرعب للذات الإنسانية، ينتظر ويتربص القلق الوجودي بشكل اعتيادي تحت سطوح الشعور، ويقذف البعض منا في حالة من قلق شعوري حين يحدث شيء غريب أو صادم أو مزعج...»(2).

الحرب والقلق الوجودي:

وليس هناك حدث فاجع وعدواني مثل الحرب التي تهشّم الذات الإنسانية وتمسخ الهوية من خلال تسرب القلق الوجودي والهجرة وثقافة الخوف لتجعل من المجتمع يتعرض للإهتزاز والضعف، وتحوّل العلاقات من طابعها الإنساني إلى نزعة البحث عن الأمان وفقدان الثقة بالحاضر والمستقبل، والخوف من المجهول الذي تسببّه الحروب، وتجعل الفرد يميل إلى كلّ نزعة فردية توفر له الأمان والاستقرار.

ويتحول القلق الوجودي الفردي إلى قلق وجودي جمعي ممّا يجعل المجتمع يفتقد الكثير من العوامل التي تشكّل خصائصه وهويته وتناغمه الداخلي، فالحرب بأوجاعها وأهوالها تجعل المجتمع يفقد الإحساس بوجوده، وبحاضره ومستقبله، ولذا يضعف الأداء الإبداعي والأداء الإنساني

(1) ملحق الصباح الثقافي، التشرد الثقافي والهويات المفككة، الأربعاء 15/ 1/ 2025، العدد 6078: 3.

(2) جيمس بارك، القلق الوجودي، ترجمة: سلمان عبد الواحد كيوش، المركز العلمي العراقي- بغداد، ودار البصائر- بيروت، 2012: 65.

الحقيقي، وتتحوّل كلّ نشاطات البشر إلى البحث عن وسيلة للتخلّص من رهاب الحرب، وهذا الإهتزاز الوجودي والسايكولوجي جعل الإنسان فرداً وجماعات معرّضاً إلى فقدان الكثير من قيم التواصل لأن التفكير سيكون تفكيراً فرديّاً، مما يجعل الهوية الجمعية والغيرية مرتكزة على النزعة الفردية، والبحث عن الخلاص بأي وسيلة، فضلاً عن أن الحرب وصورتها البشعة تحوّل الحياة البشرية إلى خراب ويأس وإحباط وموت الامل والتطلع، مما يؤثر في ملامح الهوية الوطنية ومواضع القوة في المجتمعات فتصبح تلك المجتمعات عرضة إلى الضعف وانحسار الفعالية الحياتية ومما يؤدي إلى ضعف الهوية والتكوين الاجتماعي، وتكون الهوية مصابة بالهشاشة، وتصبح عرضة لكلّ محاولات تخريب جوهرها الوطني والإنساني، «فالمجتمع العراقي شهد تحولات كبرى مثل الاحتلال والحروب والنزاعات الداخلية، والهجرة الجماعية، هذه التحولات أسهمت في تشكيل هويات وطنية مضطربة، فالاحتلال فرض ثقافته وقيمه على المجتمع العراقي فضلاً عن التأثر بقيم وعادات دول مجاورة دينياً أو مذهبياً، وبسببه فقد الأفراد جزءاً من ارتباطهم بثقافتهم الأصلية... مما جعل الفرد العراقي يأخذ من الأصيل والهجين في حالة من التخبّط الهوياتي، أمّا الحروب وصولاً إلى سقوط النظام البائد فقد كانت سبباً في معاناة الإنسان العراقي وآلامه من تأثيرات سلبية كبيرة، مما أدّى إلى شعور مواطني هذا البلد باغترابهم عن ثقافتهم وواقعهم، فاضطر كثير من العراقيين للهجرة، وما للهجرة من تأثير سلبي على الهوية الوطنية والثقافية للأفراد، مما تسبب في صعوبة الحفاظ على موروثهم الهوياتي في بلدان الهجرة، وأكثر تلك البلدان تتمتع بهويات مختلفة» (1)، وإن المآسي والوجع المدمر للحروب تحوّل الشعوب إلى حالة من حالات التشظّي والضياع والألم والمعاناة مما يجعلها تفقد خصائص الهوية القائمة على التحدّي والإنبعاث، فتدمير الذات يفقدها القدرة على استنهاض عوامل القوة التي تعرّضت إلى الهشاشة والضعف لاسيما أن المجتمعات في الغالب لا تؤمن بقيم الخراب والتدمير التي تمثلّها الحروب، فالهوية هي «كل ما يشخص الذات وغيرها وهي من الأساس تعني التفرد، إنها السمة الجوهرية العامة للمجموعة... فالهوية تقتضي تمثيل الذات في نظام الآخرية المولّد للتباين كما يقول هومي بابا»(2).

---

(1) ملحق الصباح، التشرد الثقافي،: 5.

(2) د. سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي- إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، مراجعة وتعليق: د. سمير الشيخ، طبعة ثانية مزيدة ومهذبة، 619.

الهوية وكينونتها:

بما أن الهوية المميزة لكلّ شعب أو مجموعة بشرية ترتكز على تكامل العوامل والأبعاد التي تشكل كينونتها وفاعليتها، فإن الحرب تستهدف هذه الأبعاد وتخلخلها سواء أكانت اقتصادية أم سياسية أم سايكولوجية أم اجتماعية، مما يجعل الهوية في صيرورة قلقة وشاحبة لأنها تفتقد إلى عوامل تكوّنها وتجذّرها، وتتعرض الهوية الوطنية إلى التشظّي والاهتزاز بسبب أن الشعوب لا تؤمن بالحروب كوسيلة لاثبات الوجود والتخلص من المحن، ولذا فإن هذه الحروب البشعة لا تمثل الشعوب ولا تعبر عن إرادتها مما يؤدّي إلى نشوء وظهور الهوية المزيفة وانشطار الذات الجمعية تصبح هوية المجتمع بكل أبعادها عبارة عن تأزمات وانشطار داخلي وتأرجح على مستوى فقدان الخصائص الإنسانية الوطنية والتعرّض إلى الإرغام وأشكال العنف والاستبداد واستهداف الحرية والأمان والاستقرار واحلال الألم وآثاره النفسية «لاسيما في تسعينيات القرن الماضي وهجرة ملايين العراقيين... غير أن ما حدث في العام 2003 لافتاً حقاً إذ أخذ الألم منحىً مغايراً بعد التقسيمات السياسية والمحاصصة التي شقّت الكثير مما يسميها باللحمة الوطنية ولاسيما الهوية الوطنية»(1).

ويمكن القول إنَّ الأمم والشعوب تصبح بلا دالة في زمن الحروب، لأن الواقع العنفي يشوّه تلك الهوية ويعرّضها إلى الإلغاء فالحرب لا تمثل هوية قادرة على البناء وعلى كشف جوهر هذه الشعوب، بل إنَّ أوجاع الحرب وآلامها وآثارها وقبحها تجعل الهويّة شبه مغيّبة إزاء هذا السعار الذي يمسخ الوجود الإنساني بأسره، وتصبح مظاهر الخراب وويلات الحروب والقتال مساراً يقود إلى المجهول وإلى الانهيار بكلّ أبعاده، ويصبح المجتمع في حالة تأرجح وهشاشة وضياع ممّا يؤثّر في استنهاض عوامل اثبات الهويّة وملامح المجتمع القوي القائم على تناغم وفاعلية كلّ العوامل المؤسسة لسمات الهويّة الحقيقية، عوامل النماء الاقتصادي والاجتماعي والمعرفي، عاش العراقيون واقعاً مأزوماً ومحاصراً «بكابوسية الحرب والقمع والاعتقال وأجواء الخراب والتشظي وانقلاب الموازين، ويظل هذا الهاجس يخلخل الهوية الوطنية كبؤرة مركزية عبر تراكم الهمّ الإنساني وهيمنة منظومة القبح بكلّ أشكاله وسحق الإنسان وتلبّد الأزمات التي تحاصر الجميع، فالحرب داخل الإنسان أشدّ وقعاً من الخنادق والسواتر، بل ترصد تأثيرها العميق وتأثيراتها المميتة لروح الإنسان وقمع أحلامه، ومسخ هويته الوطنية واغتيال كينونته، وتحويله إلى حقل لتجارب العنف والنكوص وضياع أحلامه وهيمنة

(1) ملحق الصباح، التشرد الثقافي: 4.

المجهول على حياة الناس، إنها مرحلة تاريخية وسياسية من تاريخ العراق وتحديداً العقدين الثمانيني والتسعيني من القرن الماضي الذي شهد ذروة الخراب والتأزم، وفضح هوس السلطة ونزوعها العبثي في تدمير كلّ شيء، وغياب العقلانية ووجود رؤية إنسانية للحفاظ على الإنسان وهويته الوطنية، فما زال الإنسان يحاول التخلص من آثار حرب الثماني سنوات فإذا الجنون الدكتاتوري يقرر في ليلة دامسة الظلام الولوج في مغامرة احتلال الكويت بكلّ الإصرار القروي، لتبدأ مرحلة هي من أشدّ المراحل قسوة وعدمية، فلقد اقترن العنف بالضياع والجوع وانطفاء الحياة وتفكك البنية السيوسيولوجية والهوية الوطنية إذ توزع الناس بين نفي داخلي ونفي خارجي، وانهيار النسيج الاجتماعي لما تفعله الحرب والقمع وجنون السلطة من فظاعات تعزز واقعاً متشظياً وهويات مفككة..»(1)، ولأن الحروب هي عدوّة التحضّر فهي تستهدف كلّ معالم البناء ومعالم العلم وصروح التحضّر، ولذلك فان منسوب الوعي والتطور العلمي والتكنولوجي يبدأ بالانحسار ممّا يجعل الهويّة الوطنية تتراجع وتصبح هوية تميل إلى الإنحدار والنكوص، ويجعلها تتّجه إلى أنماط من التفكير غير المنطقي، وغير الواقعي وغير الحقيقي بسبب ضبابيّة وشرور الحروب، ممّا يجعلها بعيدة عن اكتساب هويّة التناغم مع العصر وقيمهِ وتوّجهاته، مما يؤدي إلى العزلة واجترار القيم القديمة البالية، والبحث عن الخيارات الأضعف في محاولة لإستعادة الذات والهوية والمثال، «وتعد الذات كينونة انسانية صغرى تتماهى مع ذات جمعية اكبر منها تتمثل بالهوية... لأن الهوية هي كل ما يشخص الذات ويميزها وهي في الأساس تعني التفرد، ووظيفتها هي حماية الذات الفردية من الذوبان»(2).

تفكّك الهوية الوطنية :

وبسبب انغلاق آفاق الحياة والنماء وهيمنة العبث والعدمية تتعرض الهويّة الوطنية للتفكك ويصبح الوعي في درجة الانحسار وعدم التوازي مع حركة الحياة والواقع، مما يمهّد الأجواء لظهور أنماط من التفكير غير العقلاني، وغير المعرفي كردّة فعل لهيمنة الخراب والمجهول، ومما يضفي حالة من الانكسار على طبيعة الهويّة لأنها تمثّل مجموعة العوامل الفاعلة والمتقدّمة لتأسيس الذات الجمعية القادرة على التماسك والتفاعل.

---

(1) د. سمير الخليل، روايات ما بعد الكولنيالية: 217-218.

(2) د. سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي، دار البصائر- لبنان، 2015: 152.

إنَّ أبشع مظاهر الحروب وشرورها على قيم الشعوب وقوّتها يكمن في أنها تشيع قيم الموت والقتال وتؤسس لهويّة أحادية هدفها – كما يروّج أنصار الحروب – إلى قيم عسكرية وتقاليد لترويج العنف والعدوان كبديل للعقلانية والمبادئ الإنسانية فالمجتمع يتحوّل مع الحرب إلى الهويّة المفككة أو المجتمع العسكري الذي يدافع فيه كل فرد عن نفسه وتغيب الهويّة الجمعية الكلية، «فهو مجتمع، عنيف ومركزي وتراتبي وسلطوي وقائم على الطاعة وجامد اجتماعياً، ومن ثم فالحرب عند سبنسر – مثلاً – هي ظاهرة تخص المجتمعات البسيطة غير المتباينة، التي تقدر التنظيمات القوية المركزية، وذلك لأنها تجد نفسها عادة في صراعات مع المجتمعات المجاورة، وفي هذا النظام الاجتماعي يغدو الجيش والمجتمع شيئاً واحداً، في المجتمع العسكري الجيش عبارة عن أئمة مجيشة والأمة عبارة عن جيش خامل، ويعزز المحيط الاجتماعي المتقلّب والمترع بالصراعات الانضباط والثقة في السلطة، والاكتفاء الذاتي، والبنية الاجتماعية التراتبية للمجتمع العسكري، وذلك أن القيمة المركزية تغدو هي القدرة على الدفاع جماعياً، عن المجتمع ضد الهجمات العنيفة التي تشنّها المجتمعات الأجنبية، وفي مجتمع كهذا، لا يوجد مكان للفرد»(1)، مما يولّد ثقافة الإرغام ومسخ هوية الفرد.

وعلى وفق هذا المعطى فإن انكسار الروح الفردانية، وانكسار الذات الفردية ومعاناتها سيؤدي حتماً إلى انكسار الذات الجمعية وكينونة المجتمع ويتجسّد هذا التصدّع في انحسار وافول الهويّة الوطنية، لأن كينونة الهويّة الحقيقية تقوم على معطيات الفرد وخصائصه، وخصائص الأفراد هي التي تشكّل خصائص المجموع، وإن مفهوم الهويّة الوطنية ينبع من هوية الفرد لكي تتكون المساحة التي تمثّل امتزاج الهويّة الفردية بالهوية الجماعية، ويصبح للمجتمعات الهويّة التي تميزّها عن غيرها، وتعكس الخصائص المشتركة بين الأفراد المنضوين تحت سطوة وشكل هذا التآلف أو التكوين.

إنَّ اشاعة ثقافة الاحتراب تحوّل الأفراد إلى كائنات مستلبة الإرادة وتعيش على لعق جراحها وآلامها عبر مفهوم البعد الأحادي فالقيم المهيمنة هي التي تصنع هوية وخصوصية المجتمعات فيما إذا كانت مجتمعات قائمة على النماء وديناميّة الخلق أم أنها قائمة على فكرة الاحتراب والإرغام، مما يولّد هوية هشّة مفككة وممسوخة خاضعة لمعايير وتوّجهات ثقافة العنف التي لا يمكنها أن تؤسس لسمات هوياتيّة متقدمة وقائمة على القيم الرفيعة والمثل العليا .

(1) سينشيا مالشفيتش، سيوسيولوجيا الحرب والعنف، ترجمة: طارق عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر– بيروت، 2022: 69.

هوية وطنية أم هوية مفككّة؟

ويكون الفرد في المجتمعات الخاضعة للحروب فرداً منكسراً ومنشطراً وخاضعاً للتسلّط والإستبداد، ممّا يجعله يفقد ذاته وهويته الوطنية، وهذا الفقدان للقوة والأصالة يؤدّي إلى ظهور الهويّة المنشطرة والمزيفة والمفكّكة ، أو الارتباك الهوياتي، ويقوم مفهوم الهوية في اشكالية وجودية بين إرادة السلام والتناغم، وبين الخضوع إلى ارغام التسلط وفرص القناعات المزيفة للحروب ومرتكزاتها العدوانية، وإن مفهوم (الهويّة الوطنية) وقيمتها بكل أبعادها التاريخية والاجتماعية والوطنية تكمن في تكوين مستقبل راسخ يتوافر على قيم السلام والتناغم والحرية، وهذه القيم الرفيعة لا يمكنها أن تتعايش وتنسجم مع همجيّة ووحشية الحروب ممّا يجعل الهويّة الوطنية منقوصة ليس بإمكانها امتلاك المنظور المستقبلي في ظل حاضر مستباح وهجرة من الأوطان، ونفي المنظور المستقبلي ورؤية الآتي لم تكن هي الصفة السلبية للحروب فقط بل إنَّ الحروب تستهدف الماضي والحاضر والمستقبل ممّا يجعل التشكّل الهوياتي يبدو في فضاء عائم متقطّع الأوصال، فالإنفصال عن الواقع والماضي يجعل المجتمع في حالة من العدميّة النهلستية وإعلان حالة النفي لكلّ العوامل والتوجهات الحقيقية المؤسسة لهوية رصينة ومتقدمة ومتناغمة، تعبّر عن قيم الحياة والديمومة وليس عن قيم وتوّجهات الموت والتلاشي والمجهول الوجودي، فالحروب هي ماسخة لجوهر الهويّة الوطنية المؤسسة لهوية سلبية منكفئة ومفككة ومنقوصة، لأنها تروّج لهوية العنف والاحتراب والسلوك السادي الأحادي، ولا تشجع على ظاهرة التنوع الثقافي وازدهاء القيم المتضافرة لبناء الحياة بكل أبعادها، وبكلّ مراحلها حاضراً ومستقبلاً، «لأن الذات العدوانية التي ترتبط بمحيطها الاجتماعي تنتج علاقات عدوانية أنانية، وتصوغ للذات المضطربة وعلاقتها بالوطن والهويّة الوطنية، لذلك غدا الوطن الضحية الكبرى في معادلة اختلاف العلاقة بين الذات والآخر، بسبب تحول كل منهما حول ذاته في ظروف الحروب الأهلية»(1).

وغالباً ما تشيع (ثقافة الخوف) من المجهول مظاهر التملك والاستئثار الفرداني، وتصبح ثقافة الحياة ثقافة الغرائز اليوميّة والأنوية ومحو فكرة التعاون والتضامن الاجتماعي (الجمعي) مما يعيد هويّة المجتمع إلى سمات وخصائص المجتمعات البدائية التي تقوم على تلبية الحاجات الغريزيّة العابرة للهويّة الوطنية، والفردية والمعزولة عن حركة وقيم اجتماعية عامّة، أي إنَّ مفهوم الخلاص يتحوّل إلى إرادة معزولة ومحدودة مرتبطة بحياة الفرد ولا تؤدي إلى تناغم مشترك وروح خلاص جمعيّة تؤسس لهوية أكبر، وأكثر دلالة من الهمّ الفردي والنزوع الذاتي الضيّق.

(1) د. سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب: 359.

ولعل هذا الانفصال بين الذات والآخر يؤدّي إلى فصام شمولي لا يعكس خصائص الهويّة بوصفها إرادة وتوّجهات قائمة على أخلاقيات وثقافة المشترك وعلى القيم العامة، وإلا سيصبح النزوع الذاتي عبارة عن عبث وسلوك ضيّق وانفرادي لا ينتمي إلى قيمة او دالّة، وتغيب على وفق هذا العماء والنكوص كلّ معالم التوازن القيمي ووجود معايير النوع الإنساني الذي تتشكل عبر أنساقه ملامح ومعالم الهويّة الوطنية الراسخة والمنتجة والثابتة، وغياب المثال الجمعي يؤّدي إلى مجتمع قائم على الغريزة الفرديّة والعبث الدائم المنفلت عن كلّ معايير وقيم وضوابط الهويّة الاجتماعية الوطنية التي هي حصيلة التفاعل القيمي بين الفرد ومجموع القيم الاجتماعية والوطنية العامة مما يفرز هويّة حقيقية راسخة تقدّم التناغم والحماية والنماء للفرد كما تقدّمه إلى المجموع الإنساني الكلّي وتحرير المجتمع من الأحاديّة المقيتة التي تمثّل رداءة «الظواهر الاجتماعية المعقدّة أو عزوها إلى عامل أو سبب مفرد...»(1)، وتعاني الهويّة من الاكتمال الكلّي وتتحول إلى مجموعة من الأفراد المختلفين وغير المؤتلفين ممّا ينفي عنها الرسوخ والتناغم الكلّي.

إنَّ خطورة الهوية الفردانية القائمة على الخلاص الذاتي والتفكير المحدود والضيق يؤدّي إلى فقدان وانحسار مفهوم أو قاعدة التماسك الذي يقصد به «من الناحية السيسيولوجية زيادة العلاقات الموجبة التي تدور في المحيط الاجتماعي للجماعة، فكلما زادت هذه العلاقات ازداد تماسك الجماعة وكلّما تشتت هذه العلاقات كلّما ضعف التماسك الخارجي، ويقصد بالتماسك في المنطق صفة الفكر أو البيان الذي تتماسك جميع أجزائه فيما بينها بإحكام...»(2)، وبذلك تعكس الهويّة الوطنية المشتّتة والمتحصلة خلال الحروب تعكس ملامح التفكك الاجتماعي وغياب الطابع الجمعي للقيم بانتشار وشيوع النزوع الذاتي مما يفقد الهويّة الاجتماعية بعدها الإنساني والكلّي، وتصبح مجرد ملامح وسلوكيات معزولة عن بعضها، ويصبح المجتمع في حالة صراع قيمي قائم بين التوّجه الفردي المنفلت والضيق وبين القيم التي تتحول إلى مجرد دلالات تجريدية وتأسيسات لا تجد لها أساساً أو تمثلاً في الواقع الحقيقي، فالهوية هي التي تجسّد القيم الجماعية وخصائص المجتمع الكلّي ليس من زاوية التكوين أو المرجعية الإثنية أو الدينية أو المذهبية بل هي فضاء يعكس ويتوافر على قيم ثقافية وقيم اعتباريّة ومثل وتوجهات تمثّل الخصوصيّة والتفرد وكلّ السمات التي تجعلها هويّة مختلفة ودالة ومرتبطة بمجموعة معروفة ومحدّدة.

(1) أحمد خورشيد النورجي، مفاهيم في الفلسفة والاجتماع، دار الشؤون الثقافية- بغداد، 1990: 16.

(2) المصدر نفسه: 98.

إنَّ اشكالية الحروب ومدى الدمار والخراب الذي تحدثه في المجتمعات لا لا يقف عند الجانب العسكري والاقتصادي والاجتماعي بل يجعل المجتمع فاقداً لهويته حتّى لمرحلة ما بعد الحرب، فعادة تحتاج الشعوب والأمم إلى زمن طويل لكي تستعيد ذاتها، وهويتها الحقيقية التي فقدتها في زمن الحرب ومسخت معالمها، وهي مرحلة العودة أو الاستعادة واستحضار القيم التي غيبتها الحرب، وهذا النهوض أو الاستعادة للهوية يتطلب وعياً وقدرة على تجاوز للإنكسار وإفرازات الدمار والضياع الذي أوجدته الحرب والتخلّص من القيم الشوهاء التي اشاعتها، ومن بينها قيم الإرغام، والسلوك الفردي، وغياب الأهداف المشتركة، واستعادة الهويّة المجاوزة لأعراف وسمات الخراب تصبح أصعب من الإستعادة الاقتصادية أو العسكرية ويبدو أن المجتمع بحاجة إلى إعادة تأهيل وإعادة الصلّة بالقيم المفقودة والتقاليد القديمة، وربما تبقى معالم ثقافة الخوف والموت راسخة ليس من السهل التخلّص منها على وفق منظور زمني قريب.

لعلّ عبور المجتمعات لخراب الحروب وأدرانها يتطلّب بالدرجة الأولى استعادة الهويّة الحقيقية واستحضار القيم المؤسسة والتقاليد الراسخة والتخلص من هويّة المجتمع المزيفة والمعبرّة عن قيم الضياع وقيم العدميّة والعبث وثقافة الموت وثقافة التملك والنزوع الفرداني، وغالباً ما يتوافر العقل النقدي، ووعي الحروب كوسيلة لإدراك الموقف وتحديد سمات الإنكفاء والقيم الكميّة، والسلوك النفعي البراغماتي وذلك لإشاعة ثقافة بديلة وراسخة لثقافة الحرب وتداعياتها البغيضة.

وغالباً ما ترتبط ظاهرة الحروب وقبحها وبشاعتها بوجود الآيديولوجيا أو (السرديات الكبرى) التي تروج لها وتبشّر لها على شكل قيم وشعارات ومنظومات فكريّة زائفة لتحقيق قيم وشعارات ومنظومات فكريّة زائفة لتحقيق توجهات شوهاء، لا تقدم خيراً أو اضافة حضارية للشعوب بل تسعى إلى ثقافة الإحتراب والتقويض وتحقيق المصالح الطبقية والنفعية وأحلام التوسع والنفوذ والاستحواذ، وهذه القيم الأحادية البعد المفتعلة لا تضيف إلى التاريخ النوعي للشعوب شيئاً أو اسهاماً في تحقيق وجودها وهويتها الحقيقية، ولذلك نجد الشعوب بعد نهاية الحروب تلجأ إلى تكريس قيم السلام والحرية والتناغم والتخلّص من شرورها وويلاتها وتسعى إلى اقامة النصب والمتاحف والرموز التي تذكّر بحجم الخراب وصور الموت وثقافة التقويض لكي تستعيد وعياً ومنطلقات لهوية جديدة تقوم على تجاوز إرث وافرازات الحرب والتوجه إلى آفاق أخرى بعيدة عن هذا النزوع أو استراتيجيات التدمير المنظم.

وتصبح عملية التجاوز السايكولوجي والفكري بمثابة الكشف وتعرية ليس فقط آثار وأعراض الحرب بل الكشف عن ادّعاءاتها المزعومة والزائفة، وفضح الخطاب الآيديولوجي لها، ونجد من حيث الإستدلال المنطقي والتاريخي أن أغلب الحروب يقوم بها، ويدعو إليها المستبدّون والأنظمة الشمولية والدول الكولنيالية والعصابات والغزاة والخارجين عن قيم التحضّر وقيم السلام والرقي، ولذا نجد الأديان السماوية والآيديولوجيات الإنسانية والنظريات المتقدمة تنبذ فكرة الحرب وتدعو إلى قيم التماسك والتناغم التي تمنح المجتمعات هويتها الإنسانية الحقيقية وتؤسس لهويّة وطنية راسخة قائمة على القيم الرفيعة، وتمجيد كل ما من شأنه الارتقاء بالإنسان والمجتمعات، وخلق هويات تتناغم فيما بينها، وتؤسس لعلاقة التعايش وقبول الآخر، وإقامة تقاليد الحوار والتثاقف، والوعي الثقافي والتعددية الثقافية، ولذلك ظهرت ثقافة محاربة ورفض الحروب ونقدها عبر مرحلة استعادة الوعي والهويّة من جديد، وقطع دابر هوية العنف والإحتراب التي قامت على وعي ثقافي وكشفت عن «طبيعة الهزائم المتتالية للأنظمة التي دخلت المعارك باعتبارها اسقاط فرضي ورد فعل لتحدّي العدو بعيداً عن طموحات الجماهير...»(1)، فغالباً ما تكون الحروب بعيدة عن تقاليد وهويّة الشعوب الحقيقية التي تسعى لديمومة الحياة والنماء وتحقيق واقع انساني راسخ على قيم رفيعة تنسجم مع الأديان والفكر السامي والابتعاد عن روح البدائية وشريعة الغاب.

إنَّ الحروب ومخلّفاتها ومآسيها وحجم الخراب وعدد الأموات وما تنتجه من عدد المعاقين والمفقودين وظهور أعداد هائلة من الأرامل والأيتام ومسحوقي الحرب كل ذلك يؤدّي إلى ضعف كيان المجتمع وتراجعه، وهيمنة العوز والفقر والحاجة التي تقف حائلاً لتأسيس مجتمع قوي ومتماسك وراق يكون أفراده في ذروة العطاء والتفاعل وليس عبارة عن ذوات منقوصة ومنكسرة وشوهاء فهذه النتائج ومعالم التبعثر لا يمكنها أن تبني مجتمعاً سوياً ولا تنتج معالم لهوية راسخة وثابتة يمكنها أن تكون علامة على الرقي والتحضر ونماء القيم البانية المؤسسة، والابتعاد عن القيم الهادمة والمعادية أصلاً للإنسان ووجوده وحرّيته وكينونته.

إنَّ خطورة وضراوة الحروب تكمن في تكريس القهر والآلام والاستحواذ على الإنسان ودفعه وتسييره باتجاه سلوك لا يرغب فيه ولا يستسيغه، ويمثل هذا القهر نوعاً من تشويه الذات وإعادة

(1) أحمد خلف وعائد خصباك (تحرير)،دراسات في القصة القصيرة والرواية، دار الشؤون الثقافية- بغداد، 1986: 245.

تشكيلها سلباً، وفرض القناعات عليها بشكل قسري، وهذا التدجين أو التشويه ينعكس على عقل وسايكولوجية الإنسان ولا ينتج قيماً أو سلوكيات قيمية ايجابية وتنعكس افرازات هذا النزوع إلى تشكيل ذات شوهاء تسهم في غياب هوية حقيقية للمجتمع والفرد، وإذا ظهرت ملامح لهوية فإنها تعكس مديات هذا القهر ويتحول المجتمع إلى حال التماهي مع المتسلط، وتفكّك الهويّة الوطنية، «وتشيع أوالية التماهي باحكام المتسلّط خلال مرحلة الرضوخ وتجعل التسلّط ممكناً بل يكاد يبدو طبيعياً، تبدو الهوة الساحقة بين المتسلّط والإنسان المقهور، وبالتالي فمن حق الأول أن يسود نظراً لتفوّقه، يعاني الإنسان في هذه الحالة من مأزوم وجودي حاد يتخذ شكل رفض الذات وعدم الاعتراف لها، بل إدانتها على فشلها، وينطلق المرء في مجموعة أحكام سلبية تجعله لا يرى خيراً أو عزّة في ذاته، إنها مصدر التعقيد، ومجمع العيب، وموضع الهوان، وصبّ الحقد على الذات لعجزها وفشلها في التصدّي للمتسلّط ويتغذّى من مشاعر ذنب شديدة ترافقها بالضرورة ميول لتدمير الذات...»(1).

وبطبيعة الحال ونظراً لتراتبية الذات اجتماعياً، فإن هذا النكوص وتدمير الذات يعكس هويّة قلقة وعدمية، ولعل التمركز حول الحرب – في حقيقة الأمر – ينسق معنى ودلالة الهويّة الوطنية لأنه يستهدف، وجود الإنسان أساساً ويقضي على تطلّعات الحياة، ولا يمكن أن تقوم هوية الأوطان على أهواء الموت والميل السادي، ويكون الناتج نوعاً من التشرذم وانغلاق الأفق بكلّ معانيه، ويصبح الواقع الإنساني مرتكزاً على مفهوم البعد الواحد، وهو بعد القتل والتدمير والقضاء على كل ما يمت بديمومة الحياة، ولنستمع إلى أحدهم وهو يفقد الأمل بهويته الوطنية ويثور على كل ما هو عراقي بسبب الحروب القاسية وآلامها وفقد الأمل بالمستقبل، «لقد أصابني اليأس من كل ما هو عراقي، نحن شعب من البعوض لا نستحق أي حياة كريمة أكره عراقيتي، أكره كلّ شيء يربطني بوطن اسمه العراق»(2).

إذ يصبح الانخراط في الحروب هو أقصى وأقسى الخيارات وينبغي على الشعوب والأوطان أن تتفحص الموقف جلّياً ومليّاً من أجل تجنّب خوضها، فالخوض فيها يدفع الحياة والواقع والمصير

(1) د. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سايكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي- بيروت، لبنان: 127.

(2) د. سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي، من النص إلى الخطاب: 358، وينظر: موقع كتابات شبكة النت 2011/1/20.

إلى مساحة معتمة يسكنها المجهول، ونلحظ تأثيرات الحرب تزداد سلباً على كل الطبقات والفئات وتصبح الحياة منقوصة ومهدّدة بالفناء، ويتسرّب هذا الإحساس أو التوجه إلى عقول الآباء والأبناء والنساء وكلّ فئات المجتمع.

لاشك أن حقيقة الخراب والتدحرج القيمي الذي تسبّبه الحروب لا يقع أو يصيب الجانب العسكري والمادي والاقتصادي بل أن تأثيره الأكثر خطورة يكمن في استهدافه لعقل الإنسان وروحه وقضائه على كل مشاريع الوجود البشري ويخلق حالة من الهلع والقلق والتشتت مما ينعكس على الواقع بكلّ أبعاده، وتؤثر ثقافة الحرب على سايكولوجية الناس وتجعلهم يغرقون في الإحباط والتشاؤم ويسلبهم توجههم ونشاطاتهم ممّا يؤثر على تكوين هويّة انسانية ووطنية سويّة ومعطاءة.

وتصبح الأمم في حالة انكسار وتراجع في دخان الحروب وآلامها على مستوى العلم والمعرفة حيث إنَّ ميزانية الدول تنفق في شراءهم الأسلحة والمعدّات ممّا يؤدّي إلى موت وانحسار كلّ القطاعات وضمور وضعف الأداء الإنساني والخدمي، ويصبح الاقتصاد قائماً على البعد والانفاق الحربي والعسكري وهذا الإسراف والمغالاة في الانفاق على الحروب يؤدّي إلى ضعف القدرات وانهيار الاقتصاد وانهيار القيم التي تمجد العمل والحياة وعبر هذا المسار الاستهلاكي والعدمي تغيب الهويّة الوطنية والمجتمعية ويتحوّل المجتمع إلى مجرد شعارات وهتافات وأناشيد مزيفة للحصول على هوية ممسوخة المعالم والغايات ومفكّكة الانتماء.

إنَّ سر ضعف وتردّي الهوية بسبب الحروب والاحتراب يرتبط بأنها تغذّي النوازع والميول الغرائزية، وتكريس ثقافة الموت والقتل الجماعي ووضع مصير الإنسان على الحافات الحرجة، وظهور وتأجّج ثقافة الموت والهلع لا تبني انساناً وعقلاً سويّاً ولا يمكن أن تسهم الحروب بصنع (الهويّة الوطنية) الراكزة في ظل أجواء القتل والموت والخطر، وغياب الحياة والمستقبل والغايات السامية، وأن أية معاينة متفحّصة للتاريخ تكشف عن انهيار الدول والأمم بسبب الاستغراق والتلذذ بساديّة الحروب، وكثير من الإمبراطوريات والدول العظمى سقطت وتداعت أركانها بسبب الحروب وفاتورتها الباهضة، وتكفي الإشارة إلى أنموذج الاتحاد السوفيتي الذي غالى بالانفاق العسكري والإسراف النووي، وانشغل بالحروب الجانبية المستهلكة، ممّا أدّى إلى سقوطه وتفكّكه المرّوع وغير المتوقع في عام 1991، وعلى وفق هذا الفهم نرى دول الغرب والسياسة الأميركية تقوم على شنّ

الحروب بالنيابة وزج المرتزقة، حتّى أن الجيوش تحولت إلى شركات متعددة الجنسيات وعابرة للحدود، وذلك تجنبّاً لويلات الحروب إذا ما زجّت بها الدول والشعوب بشكل مباشر، وتصبح تبعاً لهذه المنطلقات الحروب هي الهاوية التي لا يمكن لأي مشروع انساني لإقامة هوية وطنية وفاعلة ومؤثرة أن تقوم تحت طبول الحرب وصخبها البدائي، فهي عودة إلى نسق وطقوس الغابة، وتكريس المفهوم العدمي من خلال مقولة أو شعار البقاء للأقوى، بينما أثبتت تجارب التاريخ أنّ البقاء الحقيقي يكمن في استنهاض غايات وتوجهات مختلفة أخرى لا تقوم على سياسة وعبادة القوة، وإن مشعلي الحروب سيكون مصيرهم إلى الهامش الرديء وإلى بئس المصير لنهاياتهم البائسة التي تثير الأسى والسخريّة معاً مثل (هتلر) و(موسيليني) و(نابليون بونابرت) و(هولاكو) و(نتنياهو) وغيرهم من رموز العدم والدم والتلذذ السادي، والميل إلى السلوك العدائي وتأجيج النسق الغرائزي والتمركز على نوع من التوحش الذي لا ينتج سوى طوفان من الخراب وتدمير الأوطان، وتدمير الذات والهوية، وتصبح الأمم والشعوب بلا ملامح إنسانية أو ثقافية أو خصوصية متميّزة.

ولعل ظهور ونضج ومظاهر الهويّة الوطنية تقوم على تمجيد الحياة وسمات العطاء والبذل والعمل وتمجيد القيم الإنسانية والسلام والحريّة وإحياء ثقافة الحياة والنماء والديمومة وليس الارتكاز على ثقافة العدم والمحو والإلغاء وتشويه الوجود الإنساني وهي النتائج الكارثية التي تصنعها وتؤدّي إليها الحروب بوصفها الفعالية الأكثر بؤساً وتدميراً وشروراً في التاريخ الإنساني، وتبقى الهويّة مرتبطة بإحياء مشاريع الحياة والعلم واقامة المشروع التنموي واحياء الجانب الاقتصادي والميل إلى خلق النظام الاحيائي الشامل، ودعم قطاع التعليم والصحة والخدمات واشاعة قيم العدل والحريّة والمساواة وتمجيد الإنسان بوصفه محور الوجود، وبغياب هذه الدالات تصبح الأوطان في حالة من الانكفاء الحضاري والنكوص البنيوي، وتغيب عنها الهويّة المعطاءة التي تتحوّل إلى علامة فارقة ودالاً على سطوع القيم البناءة والتوجّهات السامية، ووجود الهويّة الحقيقية المتوازنة والمتمركزة على التمجيد الايجابي، والميل السوي والمنتج هي التي تحيي أبعاد الواقع بكلّ ميادينه الاجتماعية والاقتصادية والسايكولوجية والثقافية وتؤدّي إلى خلق مفاهيم وتقاليد المجتمع الإنساني الراقي من خلال وجود منظومة من المسارات التي تعمّق الهويّة الوطنية والنزعة الحضارية واستلهام قيم الإنسان، وقيم العصر، وقيم التاريخ، وتصبح هذه الهويّة هي المقياس والعلامة والدلالة على وجود النسق العقلاني والواقعي والسامي.

إنَّ تسويق ثقافة الحرب، والثقافة العبثية القائمة على المحو والشرور لا تؤدّي الى نتاج سليم أو مشروع إحيائي وانساني ووطني فهو تسويق للدمار والخراب مما يؤدّي إلى الفقدان الكلّي لمفهوم الهويّة بكلّ أبعادها وخصائصها، والحروب تعبّر عن مسعى خطير لاستهداف الحياة بكل معانيها وصورها ومظاهرها و»إذا فاتت الحياة لم يبق وجود للغة ولا للحركة بل يبقى فراغ لا غير، وحيث لا وجود للوعي واللّغة ينتشر الصمت والألم... ولن يبقى أي جدوى أو مساعدة، ففي الموت يصمت حتى المعنى وتنتهي كل تأويلية، وتوجد حدود لا يمكن تجاوزها وقطائع دائمة...»(1)، وبما أن الحروب هي مشروع تدميري لا قيمي فإنه يكون المضاد الحقيقي لتشكيل الهويّة الوطنية والإنسانية، فهي تسعى لإقامة منطق الإزاحة وليس الثبات، وتؤسس لنوع من التشظي الذي لا يعبر عن قوة التماسك الذي تتطلبه خصائص الهويّة القائمة على قيم نوعية راكزة وثابتة ولا تقوم على قيم طارئة ومضادة لحركة الحياة والواقع والتاريخ، ولذا نلحظ الهويّة الشوهاء للحروب تنتج العزلة والنفي والوقوع في زاوية الاستهجان والإدانة، وتصبح دالة على نشر العدوان وإشاعة الكراهية وثقافة الإلغاء.

إنَّ التسلط وممارسة العنف الذي تنطوي عليه الحروب يؤدّي إلى نشوء نوع من التشوّه والقبح في تشكيل الذات المصابة بالنزوع السادي، والتجرّد من الإنسانية وقيم الوجود السامية «فمنطق التسلّط والقوة هو الذي يبيح للإنسان – أحياناً – أن يتجرد من انسانيته والذي يتجرد من انسانيته يجد متعة بممارسة القوة والتعامل بمنطق العنف لغرض السيطرة والتسلّط على الآخرين، وفي هذا الصدد يرى سارتر أن الشخص المتجبر الذي طاش صوابه بما يتميز به من سلطة كاملة ومن خوف عليها، لا يتذكر جيداً أنه كان انساناً، وإنما هو يحسب نفسه سوط أو بندقية، وبهذا يتحول إلى آلة قاتلة تستحوذ عليه شهوة القتل، والتلّذذ بممارسة مختلف أشكال العنف، وهو ما يحدث في الحروب... وهناك لذة أخرى تتولّد من استمراء الفرد ممارسة السلطة والتخويف والترهيب..»(2)، وإن هذا السلوك يخلق حالة من الإنشطار وتعدّد مراكز القوة أو مجابهة القوة مما يؤدّي إلى نشوب الصراع بمختلف توجهاته وغاياته وأعراضه، والصراع يعني الانقسام مما يؤدي إلى غياب مطلق لمفهوم الهويّة، فالهوية مفهوم يقوم أساساً على التوّحد والتناغم والانسجام وليس على الصراع والإلغاء والإحتراب وبذلك تصبح هذه الملامح الشوهاء بمثابة الغاء وطمس للهوية.

---

(1) كريستوف فولف، علم الإناسة، التاريخ والثقافة والفلسفة، ترجمة: أبو يعرب المرزوقي، الدار المتوسطة للنشر – الامارات العربية المتحدة، 2009: 191.

(2) وجدان عبد الله العبيدي، أشكال العنف في المسرحية العربية المعاصرة، دار أفكار – دمشق/ سورية، 2017: 14.

ويظل مفهوم الهويّة الحقيقي يعتمد على العلاقة المتوازنة والمتناغمة مع الآخر، بل إنَّ الآخر هو الميكانزم الحيوي لصناعة الهويّة والبحث عن الذات بوصفه محفزاً، وبؤرة تحدٍ واستشارة وتحفيز، والهويّة الوطنية لا تقوم على إلغاء ومحو الآخر، كما تسعى الحروب إلى ذلك، لأنها تقوم على رغبة القضاء على الآخر واقصائه التام، ومحو أثره مما يؤدّي إلى فراغ لهذه العلاقة التي تعمق معنى ودلالة وضرورة الهويّة الوطنية، ولذلك فإن الذات الإيجابية والمتصالحة والقائمة على التعايش مع الآخر والقبول به هي خصائص التأسيس لملامح ومعالم الهويّة الوطنية الراسخة والقائمة على البعد الإنساني والقيمي، وليس على البعد الاحترابي وتدمير بنية المجتمع وتحويله إلى ساحة للاحتدام والتصادم الذي لا يوفر أجواءً تمنح الهويّة بعدها الوجودي ويصبح كل طرف يملك ما يميزه عن الآخر، على وفق علاقة جدل وتنافس دال ومنتج وليس احتراباً أو ممارسة الإرغام على الآخر، وجعله بلا وجود ولا كيان وتصبح الذات تغرق في فراغها الداخلي من دون وجود الطرف الآخر الذي يكمل معالم المعادلة الإنسانية القائمة على الجدل والتعالق، وعلى تأسيس العلاقة المنتجة للذات، وفي الوقت نفسه منتجة للآخر مما يؤدّي إلى خلق فضاء انساني سامٍ ورفيع، «وعليه فإن كثيراً من محبّي السلطة والاحتراب يسعون إلى الغاء الآخر والقضاء عليه بكل وسيلة من الوسائل المتاحة وفي مقدمتها استخدام العنف وعلى المنوال نفسه فن المدرسة الظاهراتية وصفت التجربة الذاتية للفرد العنيف على أنها تجربة تتفاعل مع تجارب الآخرين مستخدمة العنف الذي يؤدّي إلى التدمير والقتل فهي كارثة علائقية تصيب الذات، وفي الوقت نفسه تتحول فيه على الآخر وتنهيه...»(1).

فالحروب فضلاً عن ذلك تشيع نزعة الاحساس باليأس والإحباط والنكوص الداخلي وموت الرغبة في الحياة ممّا يحوّل المجتمع إلى حالة سكونية وسلبية وارتداد إلى الخلف مما يضعف العلاقات ويقتل التواصل، ويؤدي إلى التبعثر الاجتماعي والغاء الهويّة الوطنية، وخصائص التكامل والتوحد وشيوع الانقسام الداخلي، وعدم إشاعة روح التفاؤل والتفاعل إذ سيكون ذلك هو المرتكز لفقدان الخصائص العامة والمثل والتقاليد والفعاليات التي ترتكز عليها الهويّة بوصفها البوصلة أو البؤرة المعبرة عن تفاعل وانتماء الأفراد إلى عوامل التواصل التي تعكس طبائعهم وصفاتهم وتؤسس لمنظومة المشتركات التي تقوي من انتمائهم.

---

(1) د. كامل علوان الزبيدي، علم النفس الجنائي، مؤسسة الوراق- عمان – الأردن، 2010: 177.

ثقافة الحرب والنزعة الأنوية:

وثقافة الحرب تؤسس لنزوع سلبي يقدم على استثارة روح (الأنوية) المقيتة ويمنح روح التكامل أو الانتماء الجمعي، وتعدّ النزعة (الأنوية) أحد عوامل انكسار (الهويّة الوطنية) القائمة على قيم العطاء والإيثار لا قيم الإنفراد والاستئثار واعلاء قيمة الأنا على حساب قيمة المجموع. وهذا الانشطار أو الانقسام يؤدّي إلى ظاهرة ازدواجية الشخصيّة وازدواج الذات الكلية وازدواج السلوك والقيم والغايات وبها يخلق كياناً مشوّهاً ومهزوماً على مستوى تأسيس الكينونة الاجتماعية وصياغة الهويّة فالضعف والازدواج والصراعات الداخلية تفرّغ المجموع من اكتساب خصائص الثبات والتميّز، «لأن الاحساس الضعيف وغير الناضج يدفع الذات البشرية إلى أن تعيش صراعات كثيرة بسبب عدم توازن المشاعر داخل الذات، مما يجعلها تعيش ازدواجية بين ما تعانيه، وبين الواقع المفروض عليها وهذا ما ينتهي بها إلى أن تصبح شخصيّة عنيفة تبحث عن الانتقام من ذلك الواقع الذي يتعارض مع متطلباتها، وهذا ما يؤكده الأميركي وليم جيمس بقوله: «إنَّ الشخص الذي يعاني اختلال الشعور بالواقع وبالذات، وبأن الأشياء أصبحت غير واقعية، وعلى غير حقيقتها قد يدمرّه الألم، ويقوده إلى الانتحار»(1)، أي أن الذات تتّجه إلى التدمير الداخلي كنوع من السلوك العدواني نتيجة الظروف المعقدّة التي تخلقها أجواء الحروب.

ووفق هذه المعطيات يمكن تفسير انتشار وشيوع ظاهرة الانتحار أو الموت الاختياري في زمن الحروب والأزمات والظروف المعقدّة التي تجعل من الفرد فاقداً لهويته الاجتماعية يشعر بالإحباط واللاّانتماء، واللاتناغم مما يؤدّي إلى نشوء المشاعر والأفكار الإحباطية والإنكفاء الذاتي وفقدان الحماية أو الأجواء الجماعية التي تنقذه وتروض وجوده وتقدم له القيم الهوياتية المشتركة.

فغياب الهويّة الوطنية وأبعادها المتعددة يؤدي بالفرد إلى نوع من العزلة والانفصال عن الواقع ويجعله عرضة للضعف وغياب الفعل الإيجابي بل غياب الذات بشكل كلّي، فثقافة الموت التي تمجدها وتدعو إليها الحروب تؤدّي إلى الشعور بالغثيان واللاجدوى مما يدفع الكثيرين إلى التفكير بالموت الطوعي كبديل أو احتجاج على الموت القسري، فضلاً عن ظاهرة انتحار أو قتل الجنود لأنفسهم في سوح وجبهات القتال احتجاجاً على الحرب، وتجسيداً للقلق العدمي الذي تثيره وتنشره بين البشر سواء منهم من كان في سوح القتال أم في مواقع الحياة المتعدّدة ويصبح المجتمع بلا أهداف ولا غايات

(1) الغرابة، المفهوم والتجليات، د. شاكر عبد الحميد، المجلس الأعلى الوطني – الكويت، 2012: 131.

ولا وجود أو كينونة مشتركة مما يؤّدي الى نكوص جمعي وموت وانحسار الهويّة الوطنية وانطفاء القيم الإنسانية الرفيعة والسامية.

المصادر والمراجع:

1- أحمد خلف وعائد خصباك (تحرير)،دراسات في القصة القصيرة والرواية، دار الشؤون الثقافية- بغداد، 1986.

2- أحمد خورشيد النورجي، مفاهيم في الفلسفة والاجتماع، دار الشؤون الثقافية- بغداد، 1990.

3- جيمس بارك، القلق الوجودي، ترجمة: سلمان عبد الواحد كيوش، المركز العلمي العراقي- بغداد، ودار البصائر بيروت، 2012.

4- سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، منشورات اتحاد الأدباء- بغداد، 2022.

5- سمير الخليل، روايات ما بعد الكولنيالية، دار أهوار- بغداد، 2003.

6- سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي، دار البصائر- لبنان، 2015.

7- سينشيا مالشفيتش، سيوسيولوجيا الحرب والعنف، ترجمة: طارق عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر- بيروت، 2022.

8- شاكر عبد الحميد،الغرابة، المفهوم والتجليات ، المجلس الأعلى الوطني – الكويت، 2012.

9- كامل علوان الزبيدي، علم النفس الجنائي، مؤسسة الوراق- عمان/ الأردن، 2010.

10- كريستوف فولف، علم الإناسة، التاريخ والثقافة والفلسفة، ترجمة: أبو يعرب المرزوقي، الدار المتوسطة للنشر – الإمارات العربية المتحدة، 2009.

11- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سايكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي- بيروت، لبنان .

12- ملحق الصباح الثقافي، التشرد الثقافي والهويات المفككة، الأربعاء 15/ 1/ 2025، العدد 6078.

13- وجدان عبد الله العبيدي، أشكال العنف في المسرحية العربية المعاصرة، دار أفكار – دمشق/ سورية، 2017.

- موقع كتابات شبكة النت 20/ 1/ 2011.